

مقاربات نظرية في مفهوم النخب الثقافية والسلطة بليالة الجزائر العثمانية

فترة الدايات 1671-1830م

فاطمة الزهراء طوبال

دكتورالية / جامعة وهران 1

الملخص

تختلف وجهات النظر التي تحاول تفسير مفهوم النخب الثقافية والسلطة بليالة الجزائر العثمانية ، حسب الأدوات التحليلية التي يتبناها الدارسون للموضوع ، إذ إن التمثل التاريخي للنخبة الثقافية في عهد الدايات آنذاك لا يمكن أن ينفي جرأة هذه الفئة على المطالبة بحقها في المشاركة السياسية فمسألة ربط " الثقافة بالسلطة " كانت مبدءا لممارسة السلطة على المجتمع والحجج في ذلك كثيرة . فهناك توجهات واضحة من قبل بعض المؤرخين لتفسير أبعاد هذا المفهوم بوجهة نظرتي تغلب العوامل السياسية والصراع على السلطة فوق كل اعتبار وهناك من يعطيها أبعادا إجتماعية – إقتصادية أو دينية . ومهما كان الأمر فإنه يبدو لنا جليا بأن فئة النخبة الثقافية آنذاك هي بمثابة المؤسس للعملية التاريخية المتواصلة والتي شكلت لنا مفهوم السلطة حديثا فهي نتاج مؤسساتي للدولة الحديثة . إذ تتمثل إشكالية هذا البحث في دراسة مفهوم النخبة الثقافية على اعتبار أنهم شهد تحولا وظيفيا وذلك تماشيا مع التحولات الاجتماعية والاقتصادية للبلاد ونتساءل من هذا المنطلق عن نظرية النخبة الثقافية والسلطة وتكوينهما التاريخي؟.

Abstract

The views that try to explain the concept of cultural elites and the authority of the Ottoman Empire are different according to the analytical tools adopted by the scholars. The historical representation of the cultural elite in the era of the Dayiat can not deny the courage of this group to claim their right to political participation. There has been a clear tendency by some historians to interpret the dimensions of this concept with the view that political factors and the struggle for power prevail above all considerations and that some give them socio-economic or Religious. Whatever the case, it seems clear to us that the cultural elite at the time was the founder of the ongoing historical process, which constituted the concept of modern power, which is the institutional product of the modern state. The problem of this research is to study the concept of the cultural elite as a functional transformation in line with the social and economic transformations of the country.

الكلمات المفتاحية: السلطة العثمانية / النخبة الثقافية / عهد الدايات / الدراسات الجزائرية / إيالة الجزائر

1 - مفهوم النخبة الثقافية

يعتمد مصطلح النخبة الثقافية على العديد من المقاربات العلمية، إذ من الصعب جدا تحديد معايير ثابتة لتوصيف هذه الكلمة في الفترة المدروسة، سواء منها المعايير الموضوعية أم الشكلية، ذلك أن النخبة عبارة عن مصطلح حديث يعرف عدة تضاربات في تحديده لأنه من المفاهيم التي ترادفت عليها كلمات أخرى، وهذا راجع إلى ارتباطه بمصطلحات مجاورة مثل "الأنجلنسيا"، "النخبة الحاكمة"، "النخبة السياسية"، "النخبة الثقافية"، وللإشارة لا توجد دراسات متخصصة تتبع تحديد هذا المصطلح في مختلف مراحل استخداماته التاريخية خاصة في فترة الحكم العثماني بالجزائر حتى عام 1830م، ولكن عندما نضبطه في مساره التاريخي لنبأس أن نحيله إلى مجموعة من المرادفات التي استخدمها المؤرخون بشكل كبير في تقاريرهم البحثية والذين تخصصوا في التأريخ لعهد الدايات بالجزائر 1671-1830م وهذا يدل على أن مفهوم النخبة يخضع للعديد من المقاربات التي سنشير إليها لاحقا.

أ - التعريف اللغوي:

النخبة هي فئة انتخبها الأفراد بصفة طبيعية رمزية لتمثيل رؤية قيمية في المجتمع⁽¹⁾، وقد ورد في لسان العرب لابن منظور، أن مصطلح النخبة "ما اختاره، منه. ونخبة القوم ونخبته: خيارهم"⁽²⁾ وقد ترددت في الكتابات الأجنبية بكلمة Elite إذ نفس المعنى الذي ورد عند ابن منظور نجده يتكرر في دراسة Vilfredo Pareto والذي يحصرها في الفئة التي ارتقت إلى مستوى التفاضل الاجتماعي، لأن النخبة بالنسبة للدارس هي فئة اجتماعية نقدية تتجاوز مجال تخصصها من أجل خدمة القضايا العامة⁽³⁾ والنخبة هي الصفوة أو الطليعة التي تملك قوة التأثير في المجتمع، وبناء على ماسبق فإن هذه الصفة التي تكررت في عدد كبير من المرجعيات العلمية تقود بالضرورة إلى تحديد تعريف لغوي دقيق للنخبة الثقافية والتي نשמّلها في السلطة الروحية فهي تشير إلى التفضيل والحضور الكبير في الوسط المجتمعي حيث تستمد شرعيتها من القيم الإنسانية والمواقف الأخلاقية السامية، وعليه يمكن الحصر أن النخبة هي طبقة مميزة ضمن تراتبية إجتماعية معينة.

ب - التعريف الاصطلاحي:

يشكل مفهوم النخبة الثقافية شقا هاما من المفاهيم المعاصرة في مجال التاريخ الحديث لعدة أسباب منها أنه يمثل توجه فكري معين في مجتمع الجزائر العثمانية من حيث الاستخدام، ف أثناء تعرجنا على عدد من الكلمات المرادفة لمفهوم النخبة الثقافية استنبطنا بأنها ترمز بطريقة أو بأخرى إلى تراتبية إجتماعية مميزة تختلف عن بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى والتي لا يمكن تجاوزها أثناء الحديث عن الدور الذي لعبته في الفترة التي نحن بصدد دراستها، إذ نركز في ضبط تلك التراتبية على الفضاء الاجتماعي الذي عايشته كونه محل ممارسة الفعل الرئيسي لها، ومن هنا نستجلي تصورنا المنهجي للمفهوم في مقاربة مع العوامل التي أدت إلى تحديده. ونعني بذلك أن النخبة هي فئة انتقادية تعمل على كسر الإستبداد والمظالم والإستعباد وخلق تقارب استراتيجي بين المجتمع والسلطة السياسية من خلال بث الوعي الفكري وفق مايتناسب والقيم المجتمعية.

فتصوراتنا للمجتمع آنذاك كان مبني على الأحكام القيمية التقليدية من جذوره وبالتالي فقد مثل هذا البناء مجموعة من المفكرين والعلماء الرواد الذين أضفوا طابع المشروعية في عدد من الوقائع التاريخية.

فعندما نحصر مصطلح النخبة ضمن المعارف التاريخية، فإن إحالة المفهوم إلى المنظور التاريخي وتقييده داخل إطار زمني محدد، وفق التراكم المعرفي الذي أنتجته بعض الدراسات حول هذه الفترة يصبح معيار ثابت ظل مقتصرًا على الفئة التقليدية أو الدينية كمقياس لإثبات دور الطبقات المؤثرة في المجتمع، دون أن يكون منفتحًا على بقية الفئات التي تحمل نفس المعيار، وهذا يعود إلى اختلاف المرجعيات التي ينطلق منها كل دارس في فهمه لمصطلح الثقف، إذ تفرض علينا الآليات العلمية التي يبنّي عليها تخصصنا، التحديد المنهجي لهذا المفهوم وفق الحقل المعرفي الذي نحن بصدد دراسته وذلك برصد استخدامات المفهوم من خلال الكتابات التاريخية.

• من خلال المصادر التاريخية

من خلال تتبع واستقراء عدد من الإنتاجات المستخدمة للمصطلح، بدءًا بالمصادر التاريخية يمكن الإشارة إلى مجموعة من المرادفات التي استعملها المؤرخون والدارسون الذين تخصصوا في التأريخ لفترة الحكم العثماني بالجزائر ومن تلك المصطلحات المستعملة كلمة "أعيان" إذ استخدمها عبد الرحمن التوجيني في كتابه (عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشرف غريس) ⁽⁴⁾ واستعملها محمد صالح العنثري بشكل كبير في كتابه فريدة منيسة ⁽⁵⁾ وبالمقابل جسدها حمدان خوجة في مصطلحي الأعيان والأشراف ⁽⁶⁾ ويمثلهم نقيب الأشراف الذي يختار من أهل الورع والتقوى ومن الأسر الشريفة ليتولى الوظائف الدينية، أما أبوراس الناصري فرادفها بفئة العلماء في كتابه "فتح الإله" ⁽⁷⁾ ويحصرهم أحمد البوني في فئة الصلحاء في كتابه الدرة المصونة ⁽⁸⁾، وفي نفس الإتجاه لمسنا هذا الحصر في رحلة الورتلاني ⁽⁹⁾ الذي ينعتهم بالفضلاء الصلحاء كما أن إنتاجات كل من أحمد بن سحنون الراشدي في كتابه الثغر الجماني لابتسام الثغر الوهراني ⁽¹⁰⁾ ومراسلات ابن العنابي ⁽¹¹⁾ التي تناول فيها مسألة الولاية وعلاقة الحاكم بالمحكوم توحى أنه في البداية بني على الفئات الدينية نظرا لتشجيع السلطة العثمانية لتيار التصوف بالجزائر ومساهمتهم في بناء المؤسسات الدينية وعلى رأسها الكتاتيب والأوقاف ⁽¹²⁾ واعتبرتها النخبة المسيطرة على الأوضاع بالجزائر العثمانية، ومن الدراسات من ذهبت إلى حصر المصطلح على الفئات الثقافية من شعراء وأدباء وعلماء مقربين من السلطة وفي هذا السياق يلقيهم المزارى بالنبلاء، الأدباء الشجعان والفضلاء ⁽¹³⁾ رغم أن هذه الأخيرة كانت أبعد بكثير عن تشجيع الميدان الثقافي في تلك الفترة ⁽¹⁴⁾ فالمصطلح يمثل حسب هذا الإتجاه تصور واسع يضم مجموعة من الفئات التي تمارس نشاطات ذات طابع ثقافي، وسواء في النسق المغلق أو في النسق المفتوح، أمكننا أن نحدد اتجاهات دراسة النخبة الثقافية.

الاتجاه الأول يعتمد فئة العلماء الملازمين لبلاط الدايات كمعيار تميز يؤهلها لممارسة الحكم أو توجيه السلطة الحاكمة آنذاك.

الاتجاه الثاني اعتمد جميع الأعمال والممارسات الخاصة بالنشاط الفكري والفني والاجتماعي والديني كمعيار لتصنيف النخب في الخانة الثقافية ويردها إلى الفئة التي لعبت دورا قياديا في تشكيل ثقافة المجتمع وسياسته، وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه على الإنتاجات الفكرية والأدبية لهذه الفئة.

وانطلاقا من هاذين الإتجاهين فإن تحديد مفهوم النخبة الثقافية يعتمد فيه بعدان اثنان، أولهما ديني، وثانيهما ثقافي فكري كمعيارين أساسيين في الإحاطة بالواقع الثقافي السلطوي بالجزائر العثمانية في عهد الدايات.

• من خلال الدراسات الأكاديمية

من خلال تتبعنا لمختلف استعمالات المصطلح في هذا المسار التاريخي يوضح أن النخبة هي فئة اجتماعية نقدية تتجاوز مجال تخصصها لتكون في خدمة القضايا العامة، فبدية كان استعمال المصطلح يتوافق مع الفئة التي يغلب على نشاطاتها الطابع الديني والذي طالما اعتبرته المصادر التاريخية المعيار الأساسي لتحديد قيم المجتمع الثقافية من أجل تثبيت مسألة الهوية في إطار السلطة الروحية بصفة خاصة، بيد أن الكتابات التاريخية الحديثة استخدمت هذا المصطلح بمرادفات جديدة مثل أبو القاسم سعد الله الذي وظفها من خلال كلمة "كتلة المحافظين" وجمع فيها بين المثقفين التقليديين وزعماء الدين والعلماء⁽¹⁵⁾ وقسمهم وفق التقسيم الثلاثي المتجسد في العلماء المتصوفة (المرابطون) والعلماء الموظفون (كتاب الإنشاء) والفقهاء المستقلون إذ يمكن اعتبار مجهودات أبو القاسم سعد الله في دراسته لهذه المرجعيات مجهودا متميزا نثري به موضوعنا المدروس، حيث أنه يقدم لنا أنماطا مختلفة من النخب التي ساهمت بشكل أو بآخر في أداء وظائف طلائعية في النسق الثقافي في توجيه المجتمع.⁽¹⁶⁾

ويبدو جليا أن تمثل المفهوم في عدد من الكتابات الأكاديمية الحديثة صار مألوفا، فقد استخدم خالد بوهند كذلك في دراسته حول النخب الجزائرية كلمة "النخبة"، وخاصة النخبة الثقافية في أواخر العهد العثماني على أن ذلك يمثل النخبة التقليدية التي مثلها في رجال الدين وشيوخ القبائل والأشراف وقسمها إلى فئتين⁽¹⁷⁾ :

- بورجوازية مدنية وتشمل قضاة - مُفْتُونَ - أئمة - أصحاب الكلمة المسموعة والوجاهة.

- الأرستقراطية الريفية وتشمل المرابطون (شيوخ الزوايا).

هذا المفهوم الذي تجسد في كتابات العديد من المؤرخين عملوا على تمثيله في فئات اجتماعية معينة، تتوفر فيها عدة عناصر أهمها الرؤية الثاقبة للأمور قوة التأثير في المجتمع، في حين أن هناك فئات أخرى من النخب تقوم أهدافها على الوصول إلى السلطة منافية توجهاتها الفكرية للنخب الثقافية وتتمثل هذه خاصة في النخبة السياسية.

في الفترة المدروسة وما يتعلق بضبط المصطلح، فإنه يمكن تحديد معنى الكلمة التي طالما واجهت اختلافات في وضع تعريف لها، لأن الفكر الثقافي القائم في تلك الفترة حدد مجموعة من مواصفات المثقف التي تخدم توجهاته.

فالنخبة باعتبارها فئة منتخبة ورمزية قُيِّمت على أحكام وضعية وتفاعلات سلوكية تعارف عليها المجتمع بصفة طبيعية، بُنيت على معايير ثابتة تحددها وبالتالي تتحدد بها هوية من يتصف بها، فرصد المفهوم صار يعتبر من المباحث الكبرى التي اهتمت بها الدراسات الأكاديمية الجزائرية ولو بشكل غير مباشر، خاصة أثناء التأريخ لفترة الحكم العثماني بالجزائر، فمن البدايات يمكن أن نربط هذا المفهوم بحقل الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية والتي تعتمد على دراسة بناء الثقافات الشعبية وأدائها الوظيفية، وترتبط بدراسة الطبقات الاجتماعية والسلوكيات الفردية كتاريخ العائلة والأنساب والأشراف والعادات والتقاليد ونشاطات البشر، حيث كتب يحي بوعزيز تأليفا سماه "أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة" رصد من خلاله نشاطات الأعلام الثقافية فحصر مفهوم النخبة في الطبقة المثقفة ونعتهم برجال الفكر⁽¹⁸⁾ وفي نفس الإتجاه أنجز القاسمي عبد المنعم تأليفا بعنوان "أعلام التصوف في الجزائر" استنبطنا من خلاله أعلام العهد العثماني إذ تطرق فيه إلى مفهوم النخبة بأسلوب غير مباشر فنعتها

ب"الطبقة المتعلمة التي وقفت مع مصلحة الشعب ضد الحكام" ⁽¹⁹⁾، وبالمقابل فقد رصد ياسين بودريعة مدى تأثير مجتمع مدينة الجزائر بالصلحاء فرادفها في دراسته بكلمة الأولياء ⁽²⁰⁾.

وفي نفس المبحث أنجز صادق قادة دراسة حول شخصية مسلم بن عبد القادر الوهراني مؤرخ بآيات وهران القرن (19م) ⁽²¹⁾، ورادف مصطلح النخبة بمصطلح الشخصيات اللامعة في رصده لنشاطات مسلم بن عبد القادر الوهراني الفكرية وأحصى في دراسته عدد المثقفين بمدينة وهران والذين عملوا على شرح أعماله الأدبية وقد اعتمد الدارس في رصده للمعطى التاريخي المدون في مقالاته على وثائق محفوظات وهران.

إن هذه الدراسات جسدت مفهوم النخبة وفق الفعل الذي ميزها عن بقية الشرائح الاجتماعية الأخرى، فدرست نشاطاتها بآليات علمية وتحليلية تنتهي إلى المنهج النقدي حيث نظرت إليها كأعلى قمة في الهرم الاجتماعي، وبالتالي فإن توظيف هذه المرادفات في الدراسات التاريخية سمحت بظهور مواصفات قيمية وحديثة في ضبط مفهوم النخبة الثقافية.

لقد شددت انتباهنا الديناميكية الاجتماعية التي شهدتها مجتمعات إيالة الجزائر مع أواخر فترة الحكم العثماني والتي جسدت مجموعة من حواضر المدن الثقافية ⁽²²⁾ والأسر العلمية ⁽²³⁾ لتنتقلنا إلى دائرة من استنباط علمي ينفي المنظور التاريخي الذي ذهب إليه أغلب الباحثين والذي مفاده أن هذه الفترة التي شهدتها الجزائر هي فترة انحطاط وتخلف ⁽²⁴⁾.

ومن المسلم به أن تجلي النخب الثقافية بمجتمع الجزائر العثمانية في فترة حكم الدايات صار يشكل منظور عام وشامل لجدلية تاريخية واسعة ⁽²⁵⁾ تدعو إلى تقديم نماذج واقعية وفرضيات نظرية لتصحيح النظر في مجموعة من المحطات التاريخية والتي خضعت لأحكام تقليدية ونقلية تداولها الباحثون في تمثالتهم لمجتمع إيالة الجزائر آنذاك، إذ صار الموقف يتطلب منا القيام بتعديل جريء في المنظور التقليدي للباحثين من خلال ضبط وتحديد تصنيف نوعي لفئة النخب التي تجلت في هذه الفترة، إذ حاولنا قدر الإمكان أن نضع اللبنة الأولى للتركيبة الاجتماعية لهذه الطبقة، التي اكتسبت السمة المميزة لكل الأحكام القيمية في إيالة الجزائر بشكل أعمق عما أقدم عليه جبهة المؤرخين الذين حاولوا مقارنة الأصناف النخبوية في نسق مغلق معتمدين في ذلك على أبعاد ضيقة دينية، سياسية، اقتصادية، وذلك بتركيزهم على نشاط محدد، مستبعدين مجموعة من العوامل التي ساعدت على تكوين هذه الفئة.

السلطة و نظرية تكوينها التاريخي

أ - التحليل التاريخي لمفهوم السلطة :

نعلم بأن تنامي مفهوم السلطة يشكل ظاهرة تاريخية ينطلق تحليلنا له من خلال الحدث الذي يعود مرجعه إلى المجتمع وطبيعة تغيراته وفقا لمقتضيات واقعه التاريخي. إذ إن التحليل التاريخي للسلطة هو نظرة عامة تشمل الأحداث التي ميزت الحياة المعيشية للأهالي آنذاك. فالسلطة والمجتمع هما حقيقة تاريخية، تربطهما علاقة ظروف وواقع اجتماعي إذ إن البحث في هذه العلاقة مرتبط أساسا بهذا الواقع الذي يعطي لنا مفهوما علميا دقيقا باعتباره عملية تاريخية منتجة لعدة أفكار ونظريات سياسية لامناص من استبعادها.

ومن الضروري جدا اعتبار "ابن خلدون" هو أول مؤسس لفكرة العملية التاريخية و الذي أعطى للسلطة بعدا زمنيا مميزا في مقدمته ⁽²⁶⁾ باعتبارها غاية انتقال من مرحلة إلى أخرى من أجل الوصول إلى المبتغى وهذا ما جسده العصبية القبلية و التي مبتغاها الوصول إلى السلطة معتبرا بذلك بأن التاريخ تحدده الضرورة وهذه الضرورة تتجسد في حركة العمران البشري الذي بدوره لا يمكن أن تكون فيه أحداث باعتبار أن الإنسان إجتماعي بطبعه ، وهذه الإجتماعية الإنسانية هي التي تكون لنا السلطة بمختلف أسسها و طبيعة أشكالها كما يحدد لنا علاقتها بالمجتمع و بالتالي فإن مجتمع الدولة هي علاقة معقدة تتشكل أساسا : من علاقة الأفراد ببعضهم وهذه العلاقة التي من الواضح أن تبني عليها السلطة اعتمادا على فكرة السيطرة أو سيطرة الغالب على المغلوب الذي يخضع إلى حكم إلزامي يلزمه أن يكون تحت سيطرة جهاز أعلى من اجتماعه هذا و المتجسد عموما في جهاز الدولة ذلك أن الأفراد تغلب عليهم نوازح الحس فالفردي كحيوان اجتماعي بطبعه لا بد له من قوة قصوى تتصدى لفطرته الغريزية و التي يمكن أن تكون ظالمة أكثر منها عادلة.

وهذا ما يظهر جليا من خلال التطاحنات العرقية و النزاعات القبلية أو الإيديولوجية بغرض التسلط و فرض الوجود، هذا الأمر الذي لولاه لما كانت العملية التاريخية المتجسدة في الحدث و لولاه لما كانت الدولة و لما كان المجتمع ، فالسلطة إذن تفرضها ضرورة المجتمع الإنسانية. و بالتالي فإن السلطة و الدولة متداخلان يكمل بعضهما الآخر، وهذا التكامل لا بد له من انطلاقة و هذه الإنطلاقة تتمثل في "الفكرة" التي بمقتضاها نستطيع فهم خاصية الدولة و السلطة باعتبارهما مفهوما لا يتم إلا بالطبيعة الإجتماعية المميزة للأفراد و التي تؤثر تأثيرا حاسما في القانون و تجعلنا نحاول إخضاعها لدراسة أنثروبولوجية تكون بمثابة المزج بين العادات و التقاليد و الأفكار ومدى تكافؤهما لفهم هذه العملية التاريخية، إذ قام الفكر الخلدوني بتحليل قضية العصبية القبلية التي كان لها تأثير في الحكم ذلك أن العلاقة التي ربطت المجتمع بالسلطة آنذاك ترتكز على "فكرة العصبية" و التي امتد نفوذها شتى العالم الإسلامي فابن خلدون أسس فكره على المنطق الذي حلل وضع الدولة و المجتمع تحليلًا موضوعيًا بمجاليه السياسي و الإجتماعي.

ب - السلطة الزمنية

إن البحث عن مفهوم "السلطة" بالجزائر العثمانية في عهد الدايات و ربطه بالبعد "الزمني" يبقى قضية اجتماعية، باعتباره ظاهرة للتسلط السياسي داخل المجتمع الجزائري الحديث. فلا زالت إشكالية العلاقة بين المجتمع التقليدي و السلطة قائمة الطرح إلى الآن امتدادا لتاريخ الدولة العصبية في التاريخ الإسلامي الوسيط والذي حدد السمة المميزة لهذه العلاقة ⁽²⁷⁾، حيث صار المفهوم يتجسد في ربط الحاكم بالمحكوم و جسدها كذلك في الروابط التي جمعت بينهما لفرض العدالة الإجتماعية ومدى قدرة الأفراد على تنظيم شؤونهم الحياتية وفقا للمثالية المطلقة و بمقتضى الأخلاق و القانون، إذ أنه لمن المؤكد أن ربط الفكر السلطوي بسياسة الدولة في عهد الدايات كان أول خطاب طرح إشكالية الانفصال عن الخلافة الإسلامية العثمانية، ليخلق في الأخير فترة إنتقالية بالجزائر العثمانية. ومع تطوير الدايات للنظم القانونية أثناء انفصالهم عن مركز الخلافة برز للسلطة بعدين أولهما الزمني الذي نتج عنه بروز الفكر الثوري وثانيهما روعي و المكمل للفكر النخبوي الثقافي.

و الواضح من المفهوم أن الفترة الإنتقالية تمخضت في محاولة وضع توازن تاما بين نظام السلطة الروحية و الزمنية وفق مفهوم القوة المتمثلة في سلطة الدايات المسيطرة آنذاك إلا أن جل الكتابات المتخصصة في التاريخ

الحديث تربط هذه القوة بنظرتها السياسية حيث تؤسس لنظرية السلطة السياسية الزمنية وخضوع الأهالي للدولة وللقوانين السياسية والعلاقة التي تتنامى بين المجتمع العثماني التقليدي والدولة وتستمد أساسا من السلطة الزمنية ولعل الفكر الاجتماعي في العهد الحديث كان فكرا سلطويا استنبط قوته من القوتين المالية والعسكرية فوجود هذه القوة المادية تحققت قوة السيطرة السياسية وكذا وفقا للأحكام التي اعتمدها السلاطين العثمانيين آنذاك ألا وهي قوة القهر التي لم تسمح لأي جزائري باعتلاء مناصب عليا إلا لمن كان عثمانيا وهنا تظهر ظاهرة العصبية بالجنس. ومن هنا يمكن القول أن شأن هذه العلاقة هو شأن التغلب بوجود الثروة المادي لا الوازع الروحي .

وبذلك فإن تكوين السلطة الزمنية ⁽²⁸⁾ إذن هو ظاهرة تاريخية استلزمها الأفراد في مجتمعهم بمقتضى فكرتين أساسيتين هما :

الفكرة الأولى: تكوين السلطة الزمنية تحددها الضرورة التاريخية بمختلف وقائعها الملموسة والمتجسدة في الاختلاف و النزاع الفكري إلى التقدم العلمي إلى نشر المعارف و محاولة تطويرها.

الفكرة الثانية: تكوين السلطة الزمنية تقتضيه ضرورة الحد من النزاعات العصبية والتي يجسدها الأفراد بالحسم فتكون لصالح الغالب الذي ترفعه القوة المناصرة له باعتبارها أساس الملك.

ج- السلطة الروحية

إن بداية تكوين السلطة العثمانية بالجزائر توقفت أساسا على فكرة " الخلافة الإسلامية " و التي كانت عاملا أساسيا في التأثير على المجتمع الجزائري آنذاك إذ اعتمد هذا البقاء بالجزائر لمدة طويلة على الغطاء الديني وربطه بالسياسة فكان طريقا إلى التغلب على الأهالي. فهذه الخاصية الدينية ظهرت كقوة محركة لتكوين ما أطلقوا عليه بالخلافة العثمانية بالجزائر والتي بنيت على أساس القوة الدينية.

إن مسألة السلطة الروحية التي اقتضاها الوجود العثماني بالجزائر عرفت بعدا آخر غير الذي تقتضيه الصورة الحقيقية للخلافة و التي تنظر لمصالح الدولة بمنظور شرعي ديني و بالتالي فإن مسألة الخلافة لدى السلاطين العثمانيين كان لها بعدا نظريا لا علميا والأدلة حول ذلك كثيرة ولا يقتضي منا البحث عن الأسباب بذل جهد في ذلك، فقد اخترقت السلطة العثمانية حدود هذه الخلافة بالإتجاه نحو نوع آخر من السلطة ألا وهي سلطة الهيمنة والإستغلال أو مانسميه بالسلطة الزمنية والتي أشرنا إليها سابقا.

ويمكن اعتبار أن السياسة العثمانية ، قد تميزت بالجمع بين الملك الطبيعي والسياسي باعتبار الأول ملكا جائرا يخضع الأفراد لقوانين وضعت لتحقيق أغراض الحاكم الفطرية ⁽²⁹⁾ أما الثاني فيتجسد في إلحاق الضرر بالرعايا جلبا لمصلحة الحاكم الدنيوية إذ تبدو المسألة واضحة بدقة و البراهين حول ذلك متوفرة، حيث كانت قضية السلطة العثمانية بالجزائر مرتبطة باستمرارية تغلب الجنس العثماني السلطوي على الجنس الجزائري فلا إنكار من أنها سلطة منحازة لسلطة الملك الطبيعي فهي و السلطة الدينية ضدان لا يجتمعان. إن أهم خاصية تتميز بها الخلافة أنها نظام إسلامي يهتم بالجمع بين الحاكم و المحكوم برباط أخلاقي مميز مع اعتبار العدل بينهما مسألة بالغة الأهمية.

وهكذا فإن لسيادة العدل خاصية أخرى تجعلنا نفهم قيمة العلاقة المنظمة بين الطرفين أو عدة أطراف ذلك أن " الحق " الذي اتخذته الخلافة كسمة عليا مثلى لنظامها السياسي هو شكل من أشكال القوة التي تحد من الظلم وتقمعه و بالتالي تدعو إلى ضرورة إلزام تطابق الأفكار والتزواج فيما بينها ومن أجل حماية هذه الخاصية فقد أقر مبدأ الإعتماد على السلطة الدينية في تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمعات حيث شكل توجيه الفقهاء والعلماء الركن الأساسي لدى الحكام والولاة في فترة البدايات في مرحلتها الأولى باعتبارهم النظرية الهامة التي كان يتم اللجوء إليها أثناء اتخاذ أي قرار.

إن مسألة الخلافة هي مسألة سلطة دينية و حكما سياسيا في آن واحد و مسألة الثبات على هذه السلطة لضمان استمراريتها وهذه المسألة تتعلق بشخصية الداي الذي من شأنه أن يكون فطنا لأمر الدولة الداخلية و الخارجية وفوق كل هذا متدينا، متقيا، على ملامحه صفات الإمامة و على مظهره قوة القائد الباطش بعدوه و في فكره قيوما متصلا بما يفكر فيه رعاياه و كيسا لأمجال لمن هم في حدود سلطته من إخضاعه أو العبث بقراراته التي بمقتضاها تتحقق الدولة و تتحقق السلطة و بالتالي يضمن الثبات للخلافة باعتبارها غاية في حد ذاتها.

و الغاية التي تنبني عليها السلطة الدينية كنظام سياسي هي تحقيق وجود دولة عادلة ذات سمة أخلاقية عليا و البحث عن ظروف هذا التحقيق هو ضرورة حتمية للحد من جعلها دولة استبدادية بيد أن السلطة العثمانية كانت بدايتها سلطة مثالية جاءت لتنقذ المغرب من النفوذ الأجنبي ثم استقرت تحت لواء الإسلام فأسست لنظام أرستقراطي بمفهومه العام الإقطاعي الذي استبد بالرعية فانحل ليصبح نظاما فوضويا لما تحول النظام عن مجراه الأساسي و المتمثل في الخلافة لينتقل إلى نظام كما وصفه الفلاسفة القدماء بنظام ملك طبيعي و الحكمة لوكان التشبث بالخلافة كمبدأ أساسي لهذا النظام الذي آل إلى الهلاك، فلذلك كان الدين أساسا لكل ملك و أساسا لكل دولة أو سلطة.

فالنظام العثماني كان نظاما للترابط الإقطاعي ⁽³⁰⁾ إذ يبدوا واضحا بأنه نظام يميل إلى خدمة مصالح الفئات العليا من المجتمعات و المتجسدة في التجار و الملاك الكبار إذ كان الملاك هم الطبقة المؤثرة على حياة المجتمع ولم يكن لسلطتها حدودا ولم يكن من حق الفئة البسيطة التدخل في الشؤون السياسية أو الاقتصادية للدولة و لا أحقية لها في صنع القرار مادام القانون لا يخدم إلا الفئات القوية ذات ركيزة مادية قوية ⁽³¹⁾ و بالتالي أصبح على الطبقة الكادحة أن تخضع لما يصاغ أمامها من قوانين رديئة مادام أن تحصيل معاشها يتم عن طريق خدمة أملاك الإقطاعيين.

ومادامنا بصدد تحديد مفهوم السلطة الروحية ومدى تطبيقها من طرف الدولة العثمانية في المجتمع الجزائري العثماني، ينبغي علينا مراعاة أهم الوقائع التي سعت إلى انحراف السلاطين عن تطبيق هذا النظام إذ لا يمكن مقارنته لواقع اعتمد فيه أفراد على صراع دائم من أجل تحقيق منفعة ذاتية لا أخلاقية روحية و بالتالي فقد تحول مفهوم الخلافة عن شكله الحقيقي عبر وقائع تاريخية ⁽³²⁾ كانت المنعرج الخطير لنمو فكرة التحرر و بروز الفكر الداعي إلى التخلص من قيود الجور و الظلام و لاشك أن رواد هذا الفكر التحرري قد نظروا لسحب شرعية نظام الخلافة الإسلامية من تحت لواء الدولة العثمانية قبل أن تبادر الدول الأوروبية إلى التنافس نحو اقتسام امتيازات الرجل المريض.

ومع بداية الإنقسام والإنحطاط الكلي للدولة العثمانية ⁽³³⁾ بدأ ينمو مفهوم جديد للسلطة. حينئذ فإن وظيفة السلطة وعلاقتها بالمجتمع ظلت شغل شاغل الدارسين و الباحثين منذ ذلك الحين، فالتباين الحضاري الإنساني و الفارق الإجتماعي الطبقي ساهم في عملية تسهيل الهيمنة السياسية العثمانية على التعبير الديمقراطي الحر للأفراد. فسيطرة السلطة الدينية على الفكر الجزائري كانت القوة التي استهدفت الرضوخ التام للقرارات السياسية و الإقتصادية لتضحى العلاقة غالب لمغلوب ، خادم لمخدوم فهي إذن أضحت علاقة استغلالية لما صار التحكم بالعاطفة الدينية من أجل قضاء مصلحة سياسية. فيستحيل تماما اعتبار نظام الدولة العثمانية في عهد الدايات بالجزائر بأنه استمرارية لنظام الخلافة الإسلامية التي ميزت عهد الخلفاء الراشدين نظرا لعدم قوة السلاطين في تحقيق الفاعلية التامة في بناء القوة الحضارية بالإعتماد على الشكل الحقيقي للقوة السياسية المطلقة.

الهوامش:

1. سعيد بشار، في مفهوم النخبة ودور الوسيط أو المصادر الثقافي، مجلة فكر و نقد، العدد 27، مارس 2000، ص 21-30
2. ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، 1955، ص 751-752.
3. Vilfredo Pareto, The rise and fall of the elites, transaction publishers, New York, 1991, p27-p36.
4. أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشرف غريس ق 17م، دار الخليل القاسمي، الجزائر، 2005، ط 1.
5. صاحب الكتاب عاش بقسنطينة مرحلة نهاية الحكم العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي ويرجع البعض وفاته عام 1870م، شغل منصب كاتب في المكتب العربي بقسنطينة عام 1843م بعد أن اختاره رئيس المكتب الضابط بواسوني (Boissennet)، لتولي هذا المنصب. وبتكليف من الضابط لكاتبه، أقدم محمد صالح العنترى على تأليف هذا الكتاب الذي يؤرخ لبايات قسنطينة بأسلوب تميز بالبساطة أنظر: ابن العنترى، محمد صالح، فريدة منيصة في حالة دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009. ويذكر خالد بوهند شروحات عن الكلمة في دراسته الموسومة النخب الجزائرية. ينظر: خالد بوهند، النخب الجزائرية 1892-1942، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس، 2012، ص 13.
6. حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تحقيق محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005، ص 123.
7. ابي راس الناصري، فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
8. أحمد بن القاسم البوني، الدرة المصونة في صلحاء وعلماء بونة، تحقيق سعد بوفلاقة، بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007.
9. الورثياني، سيدي حسين بن محمد، الرحلة الورثيانية، المجلد الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006، ط 1، ص 792.
10. أحمد الراشدي، بن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر، 1973.
11. ابو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي 1850، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ط 2، ص 49.
12. فارس مسدور و كمال صحراوي، الأوقاف الجزائرية: نظرة في الماضي والحاضر، مجلة أوقاف، العدد 15، نوفمبر، الكويت، 2008، ص 72.
13. الآغا بن عودة المزاوي، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر وإسبانيا وفرنسا أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ط 1، ص 291-298.
14. عبد الكريم ابن الفكون، محدد السنان في نحور إخوان الدخان، مخطوط، مكتبة وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، الجزائر، الرقم 707.
15. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 152-154.

16. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1518-1830، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ط1، ص18.
17. خالد بوهند، النخب الجزائرية 1892-1942، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، الكلية: الآداب والعلوم الانسانية، جامعة: جيلالي ليابس- سيدي بلعباس، 2012.
18. يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ط1، ص 41-47.
19. عبد المنعم حسني القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006، ط1، ص14.
20. ياسين بودريعة، المعتقدات في كرامات الأولياء بمدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 40، 2013، قسنطينة، ص367-383.
21. قادة صادق، الذاكرة المكتوبة والتاريخ: أضواء جديدة حول شخصية مسلم بن عبد القادر الوهراني أديب ومؤرخ بايات وهران (القرن 13هـ/19م)، مجلة إنسانيات، العدد 3، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، الجزائر، ص35-45.
22. Jean-Louis Marie Poirot, Voyage en Barbarie 1785-1786, volumes 2, édité chez J.B.F. Née de la Rochelle, Paris, 1989, p. 317
23. مثل أسرة بيت الطاهر المشرفي، أنظر: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشايخات والمسلسلات، ج1، ط2، بيروت، لبنان، 1982، ص466 وأسرة بيت ابن الفكون أنظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ط2؛ حسين بوخلوة، عبد الكريم الفكون القسنطيني، رسالة الماجستير في تاريخ الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2009، ص106.
24. H-D. de Grammont, Histoire d'Alger sous la domination turque « 1515,1830 », Ed Ernest Leroux, 1887, paris, p.226
25. إن منظور التركيبة النخبوية يقاس بتعريفات بعض المؤرخين الذين تم الإشارة إليهم في المدخل وتقسم حسب نشاطاتها العلمية كالعلماء والفقهاء والمرابطون وحسب نشاطاتها الوظيفية كالطبقة الرسمية والطبقة الملحق بها – أنظر سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي 1518-1830، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص18.
26. ابن خلدون، المقدمة، تحقيق محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005، ص152-156.
27. الماوردي أبو الحسن، الأحكام السلطانية، ج1، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1989، ص3.
28. خلوت حليمة، مفهوم السلطة السياسية في المجتمعات القديمة والحديثة : دراسة تحليلية، مجلة الناصرية، المجلد8، العدد1، جوان 2017، معسكر، ص369-389.
29. للتفاصيل ينظر: بالاندييه جورج – الأنثروبولوجيا السياسية، 1989، بيروت، بلا معلومات أخرى.
30. للتفاصيل ينظر:
- Gursell Seyfettin – L'Empire Othomane face au capitalisme – Ed 1987 – Paris
31. للتفاصيل ينظر: حرب محمد، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، 1989، ط1.
32. للتفاصيل ينظر: بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: منير البعلبكي ونبيلة امين فارس، دار العلم للملايين، بيروت، 1965، ط4.

33. للتفاصيل ينظر:

Montran Robert – Que sais je ? Histoire de la Turquie – 3éme Ed – 1968 – Paris.